مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلدالسابع ،العدد الرابع ،ماي 2022، ص - ص:233.-.248

دور مؤتمر القاهرة 15 و 17 فيفري 1947 في مغربة الكفاح التحرري التونسي.

The role of the Cairo Conference on February 15 and 17, 1947 in the Moroccanization of the Tunisian liberation struggle

محمد الطيب رزوق (*)
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي ، (الجزائر)، medtayeb039@gmail.com

تاريخ الاستلام: 30 /2021/07 تاريخ القبول: 04 /2022/01 تاريخ النشر: 11 /2022/05

الملخص: تتناول هذه المحاولة موضوع مؤتمر المغرب العربي بالقاهرة ودوره الفعّال في تجربة الحركة الوطنية التونسية ممثلة في الحزب الدستوري الجديد لمغربة الكفاح التحرري ، كما ترمي إلى الوقوف على أهم محطات هذه التجربة، انطلاقا من تدويل القضية التونسية بعد الحرب العالمية الثانية، ومراهنات الحركة الوطنية التونسية الدولية والعربية، وصولا إلى انعقاد المؤتمر بالقاهرة ودوره في بلورة السياسة المغاربية للقيادة التونسية، لنصل في الأخير لخلاصة مفادها أن تنسيق العمل التحريري للحركة الوطنية التونسية مع بقية الحركات الوطنية المغاربية ما هو إلا سوى ورقة ضغط جديدة لحمل فرنسا على الجلوس إلى طاولة التفاوض.

الكلمات الدالة: الحركة الوطنية التونسية؛ مؤتمر القاهرة ؛ الحزب الدستوري ؛ بورقيبة ؛مغربة الكفاح التحرري ؛ تدويل القضية التونسية.

Abstrac: This attempt deals with the topic of the Arab Maghreb Conference in Cairo and its effective role in the experience of the Tunisian national movement represented by the new constitutional party for the Moroccanization of the liberation struggle. To the convening of the conference in Cairo and its role in crystallizing the Maghreb policy of the Tunisian leadership, to finally come to the conclusion that coordinating the editorial work of the Tunisian national movement with the rest of the Maghreb national movements is nothing but a new pressure card to get France to sit at the negotiating table.

Keywords: Arab Maghreb; Conference; Tunisian; national movement; Moroccanization.

* المؤلف المرسل.

1. مقدمة:

قبل البدء في الحديث عن مؤتمر المغرب العربي ودوره في بلورة السياسة المغاربية للقيادة التونسية، وجب التطرق لنقطة مهمة وهي تدويل القضية التونسية بعد الحرب العالمية الثانية ومراهنات الحركة الوطنية التونسية الدولية والعربية في ذلك، فلقد ساهمت هذه الحرب بقدر كبير في دفع نسق التحولات التي شهدتها البلاد التونسية خلال الفترة الاستعمارية، خاصة وأن ألسنة هذه الحرب امتدت إلى تونس ذاتها التي تحولت منذ نوفمبر 1942 ولمدة ستة أشهر إلى مسرح هام للعمليات العسكرية بين قوات المحور وقوات الحلفاء.

وقد انعكست هذه الحرب بمضاعفاتها الخطرة وانعكاساتها الثقيلة على البلاد التونسية، فعلاوة على الأضرار الجسيمة المادية والبشرية التي خلفتها ساحة الحرب، ساهمت هذه الحرب في إدخال تغيرات عميقة على الهياكل الاقتصادية للبلاد بل وعلى البنية الذهنية نفسها للمجتمع التونسي، مع انفتاح البلاد على الخارج و التمكن من التعرّف على أشكال عيش وأنماط تفكير جديدة عبر قنوات متعددة بشرية واقتصادية وإعلامية.

من جهة أخرى، مثّلت هذه الحرب منعطفا كبيرا في مجال العمل التحريري التونسي إذ أفرزت جملة من المعطيات السياسية الجديدة التي أضعفت النظام الاستعماري الفرنسي ومكّنت للحركة الوطنية التونسية من انطلاقة جديدة في مواجهتها المصيرية معه، وبالفعل فقد شهدت هذه الحرب انكسار فرنسا وتلاشي هيبتها بعد الهزيمة التي منيت بها جيوشها في جوان 1940، وقبولها بتوقيع اتفاقية هدنة مع دول المحور ثمّ بمقتضاها احتلال ثلثي الأراضي الفرنسية، ولئن استطاع ديغول في هذا الظرف على رأس " القوات الفرنسية الحرّة" فرض وجود فرنسا تدريجيا ومن جديد على الساحة الدولية من خلال اقتلاع الاعتراف بحركته ممثلة شرعية لفرنسا ثمّ المشاركة على هذا الأساس في بعض القرارات العسكرية والسياسية التي اتخذتها الدول الحليفة والمساهمة في رسم الخارطة السياسية لها بعد الحرب بما مكّن لفرنسا من صيانة بعض مصالحها و المحافظة على أغلب مواقعها الاستعمارية، ومع ذلك فقد فقدت فرنسا جانبا كبيرا من إشعاعها الدولي ونفوذها السياسي والمعنوي داخل مستعمراتها.

وفي المقابل، سجّل العمل التحريري التونسي انطلاقة جديدة ولا سيّما بعد المصالحة بين الشعب والعرش، نتيجة المواقف الشجاعة التي ما انفكّ يتخذها المنصف باي منذ توليه العرش في 17 جوان 1942، قاطعا بذلك مع سياسة الخنوع والانصياع التي ميّزت حكم سلفه أحمد باي، فقد استغل الوطنيون التونسيون هذه الظرفية لفك الحصار الذي ضرب على الحركة الوطنية التونسية بعد أحداث 1938 بما مكّنهم من إعادة فرض وجودهم مجدّدا على الساحة السياسية، وقد مكّنت السياسة التي توخاها المنصف باي من توحّد الصف التونسي بصورة اجماعية لم يشذ عنها سوى الشيوعيون، وجعلت من الحركة الوطنية التونسية تلملم صفوفها مستفيدة في ذلك من المشروعية الدولية التي أكسبتها إيّاها سياسة المنصف باي إذ ولأول مرّة منذ إنتصاب الحماية تبنّى الباي وبكلِّ وضوح مطالب الحركة الوطنية مما جعل أغلب قوى هذه الحركة تلتف حوله مكوّنة بذلك شبه إجماع بين التونسيين حول منطلقات العمل الوطني وأهدافه، وقد جاء مؤتمر ليلة القدر الذي انعقد يوم23 أوت 1946 يترجم هذا المنهج و الوضع الجديد رغم انعقاده بعد أكثر من ثلاث سنوات من خلع المنصف باي وتعويضه بالأمين باي في 14 ماي 1943، كما أكّدت السياسة الفرنسية بعد الحرب شعلة العمل الوطني، إذ أثبت نظام الحماية عجزا واضحا عن معالجة القضايا المطروحة ومجاراة التطورات التي كان يشهدها الواقع التونسي الجديد وفشلت فرنسا في التكيف مع المبادئ التحريرية التي كرّستها الحرب وتم الإعلان عنها في العديد من البيانات الصادرة عن الدول الحليفة أثناء الحرب وبعدها.

في هذه الأثناء شهد المجتمع التونسي تناميا ملحوظا لطاقاته في اتجاه تدعيم مرتكزات البناء الوطني ، عبر إعادة بناء أركانه الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية، فقد أدّى تفاقم الاختلالات الاقتصادية والاجتماعية إلى تنامي الحركات المطلبية ونضج الوعي السياسي لدى مختلف شرائح المجتمع، الأمر الذي تجلى عبر حرص مختلف هذه الشرائح على تنظيم صفوفها للدفاع عن مصالحها، فقد تأسس الاتحاد العام التونسي للشغل في 20 جانفي 1946 للدفاع

عن حقوق العامل التونسي والذاتية التونسية باعتبار أنه" لتونس كما لفرنسا ملكها وعلمها وشخصيتها وذاتيتها المقدسة من الجميع..."[1].

وشهدت نفس الفترة تأسيس نقابات الأعراف التونسيين، ولئن ظلّت مواقفها متجانسة عموما مع طبيعتها الطبقية كمنظمات أعراف فقد كانت مواقفها السياسية متماشية مع ضرورات التطوّر السياسي للبلاد ومتطابقة مع المطالب السياسية العامة للشعب التونسي وتطلّعاته للاستقلال وتأكيد الذات بمضامينها السياسية والحضارية[2].

وشهدت البلاد في المجال الثقافي حركية كبيرة ولا سيّما عودة أغلب الصحف التي تعطّلت أيّام الحرب إلى الصدور إضافة إلى ما لايقل عن ثمانين جريدة ومجلة جديدة تم بعثها بعد ان رفع نظام المراقبة على الصحافة التونسية في افريل 1947[3]، كما حضي التعليم بعناية فائقة في هذا الإطار قامت المؤسسات التعليمية والثقافية على غرار الجمعية الخلدونية بدور كبير في بعث روح الثقافة الإسلامية وقيادة الثقافة إلى الشعور بوحدة العالم الاسلامي وعظمته[4].

أما على المستوى السياسي فقد شهد العمل الوطني إنتعاشة قوية، وقدسعى الوطنيون التونسيون بنجاح إلى تطوير أساليب نضالهم السياسي وأشكاله، في هذا الإطار عمل الحزب الدستوري الجديد على تجاوز الصعوبات التي أحاطت بنشاطه بعد الحرب، ونجح رغم الرقابة المسلّطة عليه في استئناف نشاطه وإعادة تنظيم صفوفه من خلال مراجعة هيكلته فاستحدث الجامعات الدستورية كهيئات وسيطة تربط بين الديوان السياسي والشعب الدستورية، وانشأ لجانا خاصة مفتوحة إلى الشخصيات المستقلة وأصحاب الكفاءات لتدارس الأوضاع في البلاد وتقديم المقترحات التي من شأنها إثراء المشروع الوطني

وقد استطاع بفضل ذلك أن يتبوأ في مدة وجيزة دوره الريادي والقيادي على رأس الحركة الوطنية بما مكّنه من تأطير النضالات الشعبية وتوظيفها لخدمة القضية الوطنية، فشجع على بعث الكثير من المنظمات المهنية والسياسية وساهم في تنظيم صفوفها، وقد بذل في هذا الإطار مجهودا كبيرا مع الحزب الدستوري القديم في إعداد مؤتمر ليلة القدر يوم 23 أوت 1946 الذي جمع كل فصائل الحركة الوطنية ورفع لأوّل مرة شعار الاستقلال التام، هذه

الانتعاشة لم تقتصر على الحزب الدستوري الجديد[5] بل شمل الحزب الدستوري القديم الذي حرص على تكثيف نشاطه عبر تجديد هياكله وتشبيبها وعلى توسيع دائرة تأثيره فأصدر من جديد جريدة الإرادة سنة 1948 ثم جريدة الاستقلال، مما مكّنه من اضطلاع دور مهم في تنظيم الحركة المنصفية وتوجيه نضالات طلبة جامع الزيتونة وفي توحيد الصف التونسي، فساهم في تأسيس " الجبهة الوطنية التونسية" في فيفري 1945، وترك بصماته واضحة في مجالات التعليم والصحافة والعمل الاجتماعي.

بل وطالت هذه التأثيرات الحزب الشيوعي نفسه فسعى إلى مزيد الالتصاق بالواقع التونسي والانخراط في الصف الوطني فعدّل في سنة 1948 موقفه المؤيد لمشروع " الاتحاد الفرنسي" قبل أن يتبنى سنة 1950 شعار المطالبة بالاستقلال.

زيادة على كل هذا فقد حرص الوطنيون التونسيون على استغلال الأوضاع الدولية الجديدة التي أفرزتها الحرب العالمية الثانية، للعمل على إخراج القضية الوطنية التونسية من نطاق العلاقات الثنائية التونسية– الفرنسية، وهو ما أدى إلى تبلور التوجّهات الكبرى لسياسة تونس الخارجية التي كانت تعمل على تأمين الدعم الخارجي للقضية التونسية بعد تدويلها، ففي هذا الظرف بدأت مواقف القيادة الوطنية التونسية تتبلور من أمهات القضايا الإقليمية والدولية، وتحدّدت خياراتها وطبيعة المشروع الوطني الذي كانت تريد تجسيده والكيان الذي كانت تعمل على بنائه داخل إطارها الإقليمي والقومي، في هذا الإطار كيف تفاعلت الحركة الوطنية التونسية خاصة الحزب الدستوري الجديد مع هذه التحولات على المستويين العالمي والعربي.

2. تفاعل الحزب الدستوري الجديد مع الواقع الدولي الجديد بعد الحرب العالمية الثانية:

لقد أفضت الحرب العالمية الثانية إلى بروز نظام عالمي جديد، تحتلّ فيه الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي موقع القلب النابض، وذلك مقابل تراجع دور المملكة المتحدة وفرنسا رغم نجاحهما في المحافظة على الجزء الأكبر من تركتيهما الاستعماريتين، وقد وفرت هذه التحولات العميقة هامش مناورة هام أمام الحركة الوطنية التونسية لحشد التاييد الدولي للقضية التونسية، خاصة وأنا تزاحم الدول الأجنبية حول الشمال الإفريقي، قد أخذ

يبدوا للظهور من خلال التنافس سواء في الدفاع عن الشق الغربي أو في السيطرة على البحر المتوسط، وقد تجلّت فعلا تلك القيمة أثناء الحرب العالمية الثانية بما لا يدع مجالا للشك(6).

ونتيجة لذلك أدّت ميلاد منظمة الأمم المتحدة وما أثارته من آمال كبيرة لدى الحركات التحررية في العالم نتيجة تنصيص ميثاقها على حق الشعوب في تقرير مصيرها، رغم احتراز فرنسا وهي عضوة في مجلس الأمن من هذه الهيئة إذ تعتقد أنها آلة بيد أمريكا والواقع الذي لا تريد فرنسا مشاهدته هو أن تلك المنظمات الأممية خطر عليها بقدر ما هي تمتنع عن حلّ المشاكل القائمة بينها وبين الشعوب التي تسيطر عليها بطريق الحوار المباشر المبني على إرجاع الحقوق لأصحابها(7).

وقد كانت الحركة لوطنية التونسية تدرك أن الوقت يخدم مصلحة الحركات التحررية داخل الأمم المتحدة، خاصة وانها التقت مصالحها مع مصالح أمريكا والاتحاد السوفياتي، بفضل ذلك تجاوزت القضية التونسية إطار العلاقات الثنائية التونسية – الفرنسية إلى إطار الميدان الأممي، وببلوغها تلك المرحلة فإنه من المحقق أن فرنسا ستُفْرَضُ عليها باسم السلام والأمن فيما يخص البلاد التونسية، كما سبق في سورية ولبنان، وكما سيأتي في الهند الصينية حلول حاسمة منافية لمصالحها، ذلك أن هذه القضايا ستجد حتما من يدافع عليها، وعندئذ ستجد فرنسا نفسها محرجة عندما تبسط لديها قضية الشمال الإفريقي، ولتكونوا على يقين على أنها ستبسط يوما ما....(8)، وهو ما وقع بالفعل وحققته الشعوب الثأئرة.

كما أن الوطنيون التونسيون وجدوا في قيام النظام العربي الجديد، ممثلا بالجامعة العربية في 22 مارس 1945 بديلا حقيقيا لمشروع "الاتحاد الفرنسي"،الذي ركزته فرنسا سنة 1946في إطار إعادة تنظيم العلاقات بين "الوطن الأم" ومستعمراته، وذلك بصرف النظر عمّا إذا كانت المراهنة على هذا النظام العربي تكتيكية أو استرتيجية، وقد وجدوا في الجامعة العربية وحتى لدى بعض الحكومات العربية سندا مؤكدا في إطار الاهتمام العربي الواسع بقضية تحرير المغرب العربي ، فقد جاء في ميثاق جامعة الدول العربية إشارة في مادته الرابعة إلى وضع البلدان العربية الغير الأعضاء (تونس و الجزائر من بينها) بإمكانية مشاركة ممثلين عنهما في نشاطها(9).

ولقد قوّى الأمل التونسي والمغاربي عامة في إمكانية المراهنة على دور عربي فاعل في هذه المنطقة خلال هذه المرحلة الحرجة من التاريخ التحرير المغاربي، في ظل المجهود الذي تبذله الدول العربية المستقلة لبناء نظام عربي فاعل في هذا الوضع الحغرا–سياسي الجديد الذي أفرزته الحرب خاصة وقد أصبح العالم العربي –كما أكد بورقيبة نفسه– يمثّل من الناحية الإستراتيجية كلا لا يتجزأ في مواجهة تداخل جديد لأوراق اللعبة السياسية بين الدول الكبرى[10].

وعموما كان الدعم العربي الذي لقيته الحركات الوطنية المغاربية هاما، ولم يكن يقتصر على الأطر الحكومية بل يتجاوزها إلى الساحة السياسية العربية الواسعة، فقد اهتمت صحف المشرق بتطور الأوضاع في المغرب العربي رغم دقة الظرف الذي كانت تشهده الساحة المشرقية، والأهمية البالغة التي كانت تكتسيها بعض القضايا لدى الرأي العام وصانع القرار السياسي في الشرق العربي، وذلك على غرار القضية الفلسطينية وقضية وحدة بلاد النيل، وقد ساهمت المقالات التي أصدرتها مساهمة فعّالة في تحسيس الرأي العام المشرقي بعروبة المغرب ومكانته داخل العالم العربي وعدالة مطالبه في الاستقلال وراء قيادته الوطنية، الأمر الذي كان ينسجم مع طبيعة هذه المرحلة السياسية العربية ولاسيما في القاهرة التي كان يراد لها ان تكون القلب النابض للجسم العربي الوليد، وكانت تعيش أخصب فترتها التاريخية حيوية ونشاطا[11].

وبالفعل، لقد أصبحت القاهرة ملجأ للعديد من الوطنيين المغاربة، مع إمكانياتهم للقاء والاتصال، مما ولّد لديهم إمكانية التنسيق بينهم لمغربة كفاحهم التحريري، ولا شك أنّ الانتشار المتنامي للأفكار القومية والوحدوية خلال هذه الفترة قد ساعد على انخراط القوى الوطنية المغاربية في عمل جبهوي جاء ليعكس حاجتها لتنسيق نشاطها في مواجهة الاستعمار.

وقد مثّل انعقاد مؤتمر المغرب العربي الذي احتضنته العاصمة المصرية في هذه الفترة بين 15 و22 فيفري 1947 أهم محطات العمل المغاربي المشترك وأكثرها وقعا بعد الحرب العالمية الثانية، فلأول مرة منذ نهاية هذه الحرب انخرطت قوى التحرر الوطني التونسية والجزائرية والمغربية في عمل تضامني مشترك، أريد به أن يكون بادرة تأسيسية لمغربة مطلب استقلال الأقطار المغربية ووحدتها[12].

2. دور مؤتمر المغرب العربي بالقاهرة في بلورة السياسة المغاربية للقيادة التونسية::

تبرز أهمية المؤتمر في بلورة السياسة المغاربية للقيادة التونسية وتحديدا الحزب الدستوري الجديد، بوصفه مركز الثقل الرئيسي داخل الحركة الوطنية التونسية، فما هو الدور الذي اضطلع به في انعقاد المؤتمر؟ وكيف تعاطي بعد ذلك مع قراراته؟وما هي أهمية المؤتمر كمحطة سياسية مرجعية بالنسبة للعمل المغاربي المشترك في بلورة سياسة الحزب المغاربية؟

لقد اضطلع الحزب الدستوري الجديد بدور أساسي في الإعداد للمؤتمر وتنظيمه، فقد كانت مشاركته في أشغاله هامة من حيث عدد المشاركين وأهميتهم بين إطاراته باعتبارهم من أعضائه القياديين على غرار الحبيب ثامر، والهادي السعيدي، والرشيد إدريس، والطّيب سليم، ويوسف الرويسي...وإذا كان بورقيبة وهو قائد الجبهة الخارجية للحزب في هذه الفترة قد تغيّب عنه بسبب وجوده بالولايات المتحدة الأمريكية، في رحلة دعائية منذ أواخر ديسمبر 1946، فقد حرص مع ذلك على تأكيد دعمه لهذه الخطوة باعتبارها "أمرا مطلوبا لمواجهة الاستعمار والوقوف وقفة حاسمة في هذا الظرف الدقيق من تاريخنا"[13].

وقد حظي المؤتمر علاوة على ذلك بتأييد أغلب القوى السياسية والاجتماعية التونسية، على غرار الاتحاد العام التونسي للشغل، وإتحاد النقابات الصنايعية، وصغار التجار بالقطر التونسي، وحركة الزيتونيين بزعامة الفاضل بن عاشور[14].

و الواقع أن قيادة الحزب الدستوري الجديد، كانت تلتقي مع بقية القيادات المغاربية المشاركة في المؤتمر على ضرورة تنسيق نشاطها من أجل تحقيق مطلب الاستقلال، باعتبار ذلك وسيلة جديدة لمحاصرة الحضور الاستعماري بمنطقة المغرب العربي، ولكنها مثلها أيضا لم تكن تنزّله ضمن أية استراتيجيا لتوحيد المنطقة عبر توحيد العمل الوطني المغاربي، وقد عكست قرارات المؤتمر هذا التوجه فقد صادق المؤتمر بعد دراسته لمختلف المواضيع التي تهمّ واقع الاستعمار الفرنسي والإسباني للمنطقة بعد الحرب وسبل مواجهته، وقد شملت أعمال اللجنة المنبثقة عن المؤتمر بعدة قرارات تعلقت بعدة مواضيع مستقلة منها: – ضرورة الاتفاق بين الأحزاب الوطنية إما بإدماجها في حزب واحد أو بتكوين جبهة وطنية تنصهر فيها هذه

الأحزاب. – إحكام الروابط بين الحركات الوطنية في الأقطار الثلاث، ولتحقيق هذا الهدف أوصى المؤتمر بالاتفاق على غاية واحدة وهي الاستقلال والجلاء[15].

إن القراءة العابرة لهذه القرارات، تؤكد أن المؤتمرين ومن ضمنهم التونسيون لم يكونوا يريدون بمؤتمرهم أكثر من إقامة حلف دفاعي في مواجهة المدّ الاستعماري المتزايد، الذي شهدته المنطقة بعد الحرب وذلك بهدف التعريف بقضية الجزائر وتونس ومراكش، وما تقاسيه منذ عشرات السنين من فضائع استعمارية منكرة وما تنشده من استقلال وحياة[16].

وبالفعل فقد عكست هذه القرارات التوجه القطري للقوى الوطنية التي شاركت في المؤتمر، وترجمت حدود التضامن المغاربي الذي كانت تسعى إلى تأمينه، فقد غاب التنصيص على ضرورة توحيد القوى الوطنية المشاركة أو انخراطها في عمل جبهوي ضدّ الاستعمار، واكتفى المؤتمرون بالدعوى إلى إحكام الروابط بين الحركات الوطنية في الأقطار الثلاثة، وتكوين لجنة دائمة من رجال الحركات الوطنية لتوحيد الخطط وتنسيق العمل لكفاح مشترك، إلا أن الضرورة السياسية كانت تقتضي بأن تعطى الأولوية لتحقيق الاتفاق بين الأحزاب الوطنية داخل كل قطر بإدماجها أو تكوين جبهة وطنية، ولكن ذلك لا ينف غياب الإرادة السياسية لمغربة النشاط التحريري، من خلال توحيد النشاط الوطني في مواجهة الاستعمار، الأمر الذي يبرز من خلال استثناء المنظمات السياسية في دعوة المؤتمرين إلى العمل على توحيد المنظمات العمالية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين الأقطار الثلاثة وتوجيهها توجيها قوميا[17].

وظلت السياسة المغاربية للحزب الدستوري الجديد خلال هذه الفترة، تقتصر على تأكيد حق مختلف أقطار الإقليم المغاربي في الاستقلال ودعم المطالب الاستقلالية للحركات الوطنية المغاربية، وقد اقتصرت علاقاته ببقية القوى الوطنية المغاربية على البحث عن التأييد المتبادل في إطار مواجهة كلٌّ منها للاستعمار في أقطارها المختلفة، وهو ما ترجم فشل مؤتمر القاهرة ثم نشاط الوطنيين المغاربة المشترك في صلب مكتب المغرب العربي بالقاهرة في أن يمثّل مرجعية لإستراتجية مغاربية موحّدة تجمع القوى التي شاركت في المؤتمر، بل وفشله حتى في أن يُكَوِّنَ حلفا دفاعيا في مواجهة الاستعمار، عبر توحيد خططه وتنسيق العمل لكفاح مشترك، إذ

عرفت الحركات الوطنية المغاربية تطوّرا متنافرا وبأنساق مختلفة سواء في علاقاتها ببعضها أو بالدولة الاستعمارية، ولم تتغير هذه السياسة في الجوهر حتى بعد انخراط الحزب في مبادرة عبد الكريم الخطابي، الممثلة في تأسيس لجنة تحرير المغرب العربي التي مثلت آخر محاولات بناء استراتجية مغاربية موحدة تجمع الحركات الوطنية المغاربية.

3 الحركة الوطنية التونسية ومبادرة عبد الكريم الخطابي في مغربة الكفاح التحرري:

لقد نجح الخطابي في جمع الأحزاب المغاربية، رغم اختلافاتها وتبايناتها على قاعدة المبادئ التي تضمّنها ميثاق اللجنة، وفي مقدمتها تأكيد الهوية الإسلامية للمغرب فالمغرب العربي بالإسلام كان وللإسلام عاش وعلى الإسلام سيصير في حياته المستقبلية وعروبته، فالمغرب جزء لا يتجزأ من بلاد العروبة وتعاونه في دائرة الجامعة العربية على قدم المساواة مع بقية الأقطار العربية امر طبيعي ولازم وضرورة تحقيق الاستقلال الشامل ورفض أي حل متواطئ مع المستعمر، فلا غاية يسعى إليها قبل الاستقلال، ولا مفاوضة مع المستعمر في الجزئيات ضمن النظام الحاضر، ولا مفاوضة إلاّ بعد إعلان الاستقلال، وقد سمح للأحزاب المنظمّة إلى اللجنة بالدخول في مخابرات مع ممثلي الحكومتين الفرنسية والإسبانية، على شرط أن تطّلع اللجنة على سير مراحل هذه المخابرات أولا بأوّل[18].

مما جعل مطلب الاستقلال المطلب المركزي المعلن لمختلف الأحزاب الأعضاء في اللجنة، رغم أن الأحزاب لم تكن تنتهج السبل نفسها لتحقيقه، ولم تكن تنزّله ضمن إستراتجية موحدّة تجمع بينها، ولم يكن الخطابي نفسه يثق في جدوى أساليبها ومراهنتها، على غرار مراهنتها على الدعم الأممي مما جعله يعلق على ذلك بأن ما وقع أمام الامم المتحدة ومجلس الأمن حول مسائل الدول المتحررة جديدا، يوحي لي بالقليل من الثقة، أو بالأحرى يجعلني حذرا كليا إزاء القيمة التي يمكن التعويل عليها من اللجوء إلى منظمات التحكيم الدولية، إن مشاكلنا لا يمكن حلّها إلاّ بأيدينا نفسها بالسلم كان ذلك أم بالحرب[19].

وقد ساندت القيادة الداخلية للحزب الدستوري الجديد قرار الانخراط في اللجنة، فقد أكّد صالح بن يوسف بعد أيام قليلة من إعلان تشكيل اللجنة قوله : (إن إخواننا المهاجرين

من المغرب العربي بمصر، يعملون يدا واحدة وبتنسيق تام لنفس الغاية التي نسعى إليها، فتشكيل لجنة تحرير شمال إفريقيا (هكذا ذكرها) تحت رئاسة الأمير عبد الكريم هو شكل جديد لنفس الحركة المتواصلة، التي يقوم بها لحد الآن مكتب المغرب العربي، وجدير بكل فرد من أفراد الشمال الإفريقي أن يعلّق الآمال وأن يمنح ثقته التامة لهذه القيادة، لتتمكن من الاسترسال في جهودها للوصول إلى غاية الجميع وهي استقلال الشمال الإفريقي)[20].

ومن خلال هذا الانخراط والدعم الداخلي والخارجي للحزب، فقد تكللت دبلوماسية الحزب بالنجاح، إذ حصل بورقيبة على المعونة والتأييد الذين كان يطالب بهما باسم اللجنة وباسم الخطابي شخصيا، وبلغ صوته أن يستنجد ملوك ورؤساء العرب ويطلب منهم إثارة قضية المغرب العربي في هيئة الأمم المتحدة، بعد أن أصبحت الأقطار الثلاث الجزائر وتونس ومراكش متحدة بمطالبها لتحقيق الأهداف القومية، وقد توحّدت أحزابها بالوطن وخارجه في لجنة تحرير المغرب العربي برئاسة الخطابي الذي توفرت في شخصه المزايا المطلوبة لجمع الأحزاب المغربية، والتوحيد بينها بمطلبها القومي الواحد[21].

لقد كانت جولات وصولات الحبيب بورقيبة في العواصم العربية، تدخل ضمن إستراتجية الحزب الدستوري الجديد من انخراطه في اللجنة، من خلال حرصه على الاستفادة من هذا الإطار الجديد للتعريف بالقضية التونسية في الخارج، تجاوبا مع الخطّة التي كان اقرّها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لدعم الجبهة الخارجية، حيث كانت نتيجة أعماله ما يعلمه الخاص والعام في أنحاء العالم، إذ تكونت بفضل مساعيه واجهة ثانية شرقية عتيدة تؤيدها الدول العربية وتعمل بنشاط فيّاض لتحرير الشمال الإفريقي بأكمله[22].

ولقد عبّرت أيضا مشاركة الحزب في اللجنة عن شعور مؤكد بضرورة تأسيس التضامن المغاربي، استجابة لمقتضيات المواجهة مع الاستعمار، وربّما صادف ذلك لدى بعض قاداته على غرار الحبيب ثامر، إيمانا جديا بجدوى اللجنة كأداة إدماجية للعمل الوطني المغاربي، خاصة وأن التوجه القطري ظلّ يتطور بصورة متزامنة مع تطور التوجه المغاربي بل والعروبي والإسلامي في صلب الحركات الوطنية المغاربية[23].

وبالفعل أن هذه الوحدة الكفاحية المغاربية، لم تكن موجودة بالصورة الحقيقية لكفاح مغاربي مشترك وإن وجد بعض التنسيق بين القيادات المغاربية داخل الأطر المشتركة، مثل لجنة تحرير المغرب العربي ، ولم يكن القادة المغاربة يسعون لتحقيق الوحدة الكفاحية، وإنما فحسب إلى الاستفادة من التضامن المغاربي الذي كان يجسّده وجود هذا الإطار لتحقيق مطالب قطرية بالأساس، وقد كرّس تطوّر الأوضاع في المغرب العربي والمنطقة العربية عموما فشل هذه التجربة الكفاحية في تنسيق النشاط الوطني المغاربي فضلا عن توحيده.

وقد ترجم فشل هذه التجربة إثر العودة المتزامنة للزعماء المغاربة إلى أوطانهم، بحثا عن حلّ تفاوضي لقضاياهم الوطنية مع القوة الاستعمارية داخل الأطر القطرية، مما قابل ذلك قطعهم نهائيا مع خيار مغربة الكفاح الوطني الذي حاولت اللجنة تجسيده بقيادة الخطابي.

4 . عودة بورقيبة إلى تونس وسقوط خيار مغربة الكفاح التحرري:

لقد كانت عودة بورقيبة إلى تونس في 8 سبتمبر 1949، تعبّر عن خيبة أمل تضاهي الآمال التي ولّدها ميلاد جامعة الدول العربية وجولته في المشرق العربي بحثا عن الدعم العربي للقضية الوطنية التونسية، فالمساندة العربية لم ترق إلى مستوى الآمال التي عُلّقت عليها، بل ولم يكن ينتظر أن ترقى إلى مستوى هذه الآمال في ظل الأوضاع السياسية السائدة والسياسات التي كانت تتوخاها الدول العربية، إذ تبيّن أن تحرّك القيادات العربية كان ينطلق من مصالحها القطرية، وأنها كانت تجتمع في الجوهر على ضرورة تأجيل البت في قضية المغرب العربي إلى ما بعد حلّ القضية الفلسطينية، الأمر الذي فهمه بورقيبة على أنه يؤكد الخيار القطري الذي أسست عليه سياستها تجاه قضايا المنطقة العربية بما في ذلك القضية الفلسطينية نفسها.

لقد غلّب الفعل السياسي العربي مبدأ التضامن العربي بمعناه العام، وعلى أساس ما تمليه المصالح القطرية لمختلف وحدات هذا النظام العربي الناشئ على مبدأ الوحدة بأبعادها الإستراتيجية على قاعدة ما تمليه المصلحة الواحدة للأمة الواحدة، وكانت سياسات القيادات العربية تنبني على حسابات قطرية بالأساس، بل وكان اهتمام مجلس جامعة الدول العربية

للمغرب في إحدى جوانبه محاولة للردّ على خطاب المعارضة السياسية الذي كان ينتقد عجز الجامعة العربية عن تفعيل الإرادة العربية من أجل ضمان الحقوق العربية[24].

وقد أصاب هذا الأداء السياسي العربي القادة المغاربة في الشرق العربي بخيبة أمل كبيرة، فعملوا على الانتقال بقضاياهم من المستوى الرسمي إلى المستوى الشعبي، وكثفوا في هذا الإطار نشاطهم وخاصة الإعلامي منه، وتعدّدت جولاتهم الدعائية والتحسيسية بين العواصم العربية بل تلاحقت الأحداث في اتجاه تعميق شعور الخيبة، كما ترجمت ذلك المذكّرة التي قدّمتها جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية إلى جامعة الدول العربية بمناسبة اجتماعها يوم 7 فيفري 1948 إذ أكّدت الجبهة بوضوح خيبة أمل المغاربة إزاء محدودية الدعم العربي لقضايا المغرب[25].

وهذا ما أدى ببورقيبة للتذمر باستمرار أثنا إقامته المشرقية الطويلة، من خلال عدم توفّر الدعم العربي الفعّال للقضية التونسية وقضية المغرب العربي عموما، نتيجة انشغال عواصم المشرق بقضاياهم المباشرة، وقد صرّح في هذا الإطار أثناء زيارته إلى الأردن بصفته الأمين العام للجنة تحرير المغرب العربي قائلا: (عار عليكم أيّها العرب أن تهملوا خمسة وعشرون مليونا من إخوانكم في المغرب يسامون سوء العذاب...أية قضية عربية تلك التي تعني بجزء من الوطن وتهمل الجزء الآخر، وأي كيان دولي ومستقبل سياسي يستهدفه العرب، إذا جناحهم الأيسر على ما فيه من كنوز دفينة وقواعد إستراتجية خطيرة مهددة[26].

والواقع هو أن الحزب الدستوري الجديد وبورقيبة على رأسه ظل وفيا دائما لإستراتيجيته التحريرية، ولم يكن العمل المغاربي المشترك ينزله ضمن هذه الإستراتيجية، إلا كورقة ضغط جديدة بيد الحزب والحركة الوطنية التونسية عموما ضد السلطة الاستعمارية، وذلك منذ قرار الحزب بتدويل القضية التونسية، وإيفاد رئيسه لهذه المهمّة الصعبة، حتى يبرهن عما يعلّقه من الاعتبار في المستقبل على العمل في الميدان الخارجي[27]، فلم يكن توحيد العمل التحريري أبدا رهانا استراتيجيا للحزب، وإنما يدخل ضمن تنسيق عمله مع بقية الأحزاب المغاربية داخل الأطر التي أتاحها لقاء القاهرة بين رموز الحركات الوطنية المغاربية بمختلف تشكيلاتها، إنما

يدخل في إطار حرصه على تدويل القضية التونسية والخروج بها من النطاق الثنائي التونسي – الفرنسي إلى الرأي الدولي، إضافة إلى الاستفادة من مزايا العمل المشترك دون أن يجعل من هذا العمل المشترك رهانا استراتجيا في خدمة خيار مغربة الكفاح التحريري.

وفي هذا الإطار ، لم يكن تنسيق العمل التحريري مع بقية الحركات الوطنية المغاربية مثله مثل الحصول على التأييد العربي، سوى ورقة ضغط جديدة للحزب الدستوري لحمل فرنسا على الجلوس لطاولة المفاوضات، لقد كان الحزب برئاسة بورقيبة يطالب باستمرار تنسيق المواقف بين الحركات المغاربية في مواجهة الاستعمار، ولكن مغربة العمل التحريري لم تكن أكثر من هذا المعنى، ولم تكن تعني الانخراط في عمل تأسيسي لمشروع سياسي مغاربي بمضامين حضارية قومية وحدود سياسية واضحة، وقد كان يرى الحزب في هذا التنسيق ضرورة ولكنها ضرورة تكتيكية لا هدف استراتيجي، وقد ظل بورقيبة وفيا لهذه السياسة حتى عندما كان يتكلم باسم المغاربة، ولئن ظلت القاهرة مقر إقامته الأساسي بين مارس 1945 وسبتمبر 1949فإن بورقيبة لم يربط أبدا رهاناته بالعرب و لا بالمغاربة، بل وظل في أثناء ذلك يبحث عن أول فرصة للتحول إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليطرح القضية التونسية على الأمريكيين ومن خلالهم على العالم الحر وهو ما نجح في القيام به سنة1946[28].

5.الخاتمة

ويمكن القول في الأخير أن عودة بورقيبة لتونس بعد الجولة الخارجية قد أفضت إلى قطع الحزب مع خيار مغربة الكفاح التحريري، كخيار يقوم على خلق الوحدة الكفاحية المغاربية في مواجهة الاستعمار، ولكن سياسة الحزب تجاه العمل المغاربي المشترك منذ البداية لم تنم أبدا إلى خلق هذه الوحدة، ولم يتعامل الحزب أبدا مع شعار مغربة الكفاح التحريري بهذا المفهوم، كما قد توحي بعض المواقف السياسية المناسبتية العابرة، ولكن وضع شعار مغربة الكفاح التحرري كورقة ضغط للاستعمار الفرنسي للجلوس على طاولة المفاوضات وهو ما وقع بالفعل

5.الهوامش:

[1] – مقال لفرحات حشاد، **الوعي القومي للحركة العمالية التونسية**، أنظر جريدة النهضة، بتاريخ 29 أفريل 1946.

[2] – التيمومي الهادي، **نقابات الأعراف التونسيين '1932–1955)**، دار مُحَّد علي للنشر،صفاقس، تونس، 1983، ص55.

[3] - La presse en Tunisie" IN Maghreb" . N°15,MAI – JUIN,1996,P37-45.

[4] SAYDI MONGI , " **AL JAMIYYA KHALDONIYYA(1896–1958)**", Maison Tunisieenne de l'edition, Tunisie, 1974.

[5] - Histoire du mouvement national",Document II ,DAR Elamel,Tunisie,1979,P 35-37."

[6] – من رسالة بورقيبة إلى فرحات عباس في29 جويلية 1946، في : بورقيبة الحبيب، **"بين تونس وفرنسا"**،وزارة الاعلام، تونس 1985، ص ص 235-236.

[7] – من تصريح لبورقيبة في القاهرة في 9أوت 1947أنظر: بورقيبة الحبيب، **"بين تونس وفرنسا"**، مصدر نفسه،ص257.

[8] – من تصريح لبورقيبة يوم 9أوت 1947 للمزيد أنظر: بورقيبة الحبيب، **"بين تونس وفرنسا"**، مصدر سابق،ص257.

[9] – إدريس الرشيد وآخرون ، **كيان المغرب العربي وآفاقه** ، مركز الابحاث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1983،ص25.

[10] – رسالة بورقيبة إلى فرحات عباس بتاريخ 29 جويلية1946 للمزيد أنظر: بورقيبة الحبيب، مصدر نفسه، ص ص236-237.

[11] –إدريس الرشيد، المرجع السابق، ص26.

[12]- Slim Taieb,"**La politique Etrangere de la Tunisie**", In etudes internationales,N° 31, Fevrier 1989, P 91.

[13] – الرويسي يوسف، نشاط مكتب المغرب العربي–الحلقة الرابعة–: **دور مكتب المغرب العربي بدمشق في انعقاد مؤتمر المغرب العربي في القاعرة**، عدد 10–11، تونس،جانفي 1978،ص 105.

[14] – المرجع نفسه، ص106.

[15] – ادريس الرشيد ، **ذكريات من مكتب المغرب العربي بالقاهرة**، تونس، 1981، ص ص 40–70.

[16] – الرويسي يوسف، المرجع السابق، ص ص 107–109.

[17] – نفسه، ص111.

[18] – مالكي مُحَمَّد، "**علاقة المغرب بالمشرق، بحث في مشروعات الوحدة والتكامل**" في شؤون عربية، عدد73، مارس 1993، ص23–28.

[19] – زنبير مُحَمَّد، " **دور عبد الكريم الخطابي في حركة التحرر الوطني في المغرب**"، مركز الآبحاث والدراسات العربية، تونس ،1983، ص ص 406–407.

[20] – ندوة صحفية لصالح بن يوسف نقلتها **جريدة الزهرة** ، عدد 8 جانفي 1948.

[21] – تصريح لبورقيبة ببيروت خلال زيارته للبنان نشر في **جريد الزهرة**، عدد 9 أفريل1948.

[22] – مقال لإدريس الرشيد في **جريدة الزهرة** ، 20 أفريل 1948.

[23] – في تصريح صحفي لبورقيبة لمراسل الأهرام المصرية في تفسير البحث عن عرض قضية تونس والمغرب العربي على الأمم المتحدة، نقلتها **جريدة الزهرة**، عدد 6 أفريل 1948.

[24] – عبيد خالد، **مكتب المغرب العربي بالقاهرة(1947–1949)**، شهادة كفاءة في البحث، إشراف علي المحجوبي،شعبة التاريخ،كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس،1989، ص ص 34–36.

[25] – أنظر نص المذكرة الذي نشرتع **جريدة الزهرة**، عددي 20 و 21 مارس 1948.

[26] – جريدة الزهرة، عدد 4 أفريل1948.

[27] – DERECTION DE ALI MAHJOUBI,SECTION HISTOIRE, FACULTE DES LETTRE ET DES SCIENCES HUMAINES, TUNIS, 1986.

[28] – بورقيبة الحبيب، **بين تونس وفرنسا**، وزارة الاعلام،تونس، 1985، ص ص 319 –320.